

## ذكر الله

جاء في سورة الأنفال وصف للمؤمنين في قوله تعالى : ( إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ) .

وقد شرح القرطبي هذه الآية بقوله : وصف الله في هذه الآية المؤمنين بالخوف والوجل عند ذكره ، وذلك لقوة إيمانهم ، ومراعاتهم لربهم ، وكأنهم بين يديه ، ونظير هذه الآية ( وبشر المحبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ) ، وقال : ( وتطمئن قلوبهم بذكر الله ) ، فهذا يرجع إلى كمال المعرفة وثقة القلب والوجل والفرح من عذاب الله فلا تناقض ، وقد جمع الله بين المعنيين في قوله : ( الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ) أي تسكن نفوسهم من حيث اليقين إلى الله ، وإن كانوا يخافون الله ، انتهى كلام القرطبي .

وقد جاء في تفسير الجلالين ، في شرح هذه الآية الأخيرة « يرتعد عند ذكر وعيده جلود الذين يخشون ربهم ثم تطمئن جلودهم وقلوبهم عند ذكر وعده » .

وفيما جاء في تفسير القرطبي ، وفي تفسير الجلالين ، ما يدل على أن تفسير الآية الثانية من سورة الأنفال ، بما ذهب إليه القرطبي نفسه . وسائر فيه جميع المفسرين القدامى والمحدثين تقريباً ، تعارض يهدر تفسيرهم ، إذ لا سبيل إلى استقامة المعنى ودفع هذا التعارض ، إلا بتقدير أن في هذه الآية الكريمة ، مضافاً محذوفاً يسبق لفظ الجلالة ، وهذا المضاف المحذوف ، يمكن تقديره إما بوعيد ، أو بعذاب أو بعقاب ، أو أي لفظ آخر يؤدي هذا المعنى ، وبذلك يتضح معنى هذه الآية في

يسر ، وأن القصد منها أن المؤمنين حقاً ، هم الذين إذا ذكر وعيد الله وعذابه ، وعقابه ، وجلت قلوبهم ، لأنهم يصدقون هذا الوعيد ويؤمنون بهذا العذاب ، ويعلمون يقيناً بأن البعث حق ، والحساب حق ، والجنة حق والجهنم حق ، وإذا تليت عليهم آياته - آيات الله - زادتهم إيماناً .

وهذا التأويل يتفق ويتسق مع مبدأ كلي من مبادئ العقيدة الإسلامية ، جاء في سورة الرعد ، إذ ورد فيها ( الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ) .

أقول إن هذا مبدأ كلي ، ذلك لأن إله المسلمين هو رب العالمين ، وهو رب المشارق والمغرب وخالق كل شيء ، وليس كمثل شيء ، وقد وسع كل شيء رحمة وعلماً ، كتب على نفسه الرحمة . ولذا فإن ذكره يبعث الطمأنينة في قلوب المؤمنين ، وينزل عليهم السكينة ، ويذهب عنهم الحزن ، ويصرف عن نفوسهم الفزع .

وقول الله تعالى ( ألا بذكر الله تطمئن القلوب ) خطاب موجه إلى المؤمنين والكافرين على السواء ، فالمؤمنون يعلمهم الله بهذا الخطاب أنهم بفضل إيمانهم به ، واطمئنانهم إليه وثقتهم به ينزل على قلوبهم السكينة . ويبعث في نفوسهم الطمأنينة ، ويثبتهم في وجه الشدائد والملمات ، ويحميهم من الفزع في النوازل والأزمات ، إذ يعلمهم أن مع العسر يسراً ، وأن الذين يتقونه سبحانه ويخشونه يجعل لهم من كل ضيق مخرجاً ، وهم بعد هذا كله يفرحون بما آتاهم ، ولا ييأسون على ما فاتهم . أما الكافرون ففيهم مقيم ، وحزن متصل في النعمة والنقمة على السواء ، ففي النعمة لا يقنعون بها ، ولا ينفكون يطلبون المزيد ، ويحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضل ، ويخشون زوال ما لهم ، وهلاك سلطانهم ، يشفقون من أن يشاركهم فيه مشارك من ذرى القربى ، أو المنافسين . وهم إن نزلت بهم المصائب ذهبت نفوسهم شعاعاً ، وتخلي عنهم عزهم

وضاقت الدنيا عليهم بما رحبت وضاقت عليهم كذلك أنفسهم ، ذلك لأن الشيطان يعدهم الفقر ، فيأمرهم بالفحشاء ، والله يعدهم مغفرة منه وفضلا .

وهذه الميزة التي وعد الله بها عباده المتقين والمحسنين ، والمحبتين والمؤمنين هي سند المؤمنين وزادهم ، لا في خاصة حياتهم ، بل في جهادهم الشرك ، والزيغ ، والضلال ، وحريهم الرذائل والفواحش ، وهي عداتهم في دعوتهم إلى الخير ، والنهي عن المنكر ، فإذا زالت عنهم طمأنينتهم التي ينزلها الله على قلوبهم عند ذكره تعالى وتبارك ، انثلمت سيوفهم ، فلم تعد تقطع ، وجمدت ألسنتهم فلم تعد تنطق ، وانطفأ نورهم فلم يعودوا يهدون ولا يهتدون ، فهم - بغير هذه العدة - يتساوون مع غيرهم من سائر الناس ، بل يتفوق عليهم أهل الدنيا ، بما لديهم من مال ، وبما حصلوا من خبرة وبقدرتهم على الإغراء والخداع . وقد جاء في تفسير المنار ، في تفسير آية ( فمن تبع هداى ) من سورة البقرة ، كلام يتصل بما نحن في صدده ننقله هنا :

الخوف عبارة عن تألم الإنسان من توقع مكروه يصيبه : أو توقع حرمان من محبوب يتمتع به أو يطلبه ، والحزن ألم يلم بالإنسان إذا فقد ما يحب . وقد أعطانا الله جل ثناؤه الطمأنينة التامة في مقابلة ما تحدثه كلمة ( اهبطوا ) من الخوف من سوء المنقلب وما تثيره من كوامن الرعب ، فالهتدون بهداية الله تعالى لا يخافون مما هو آت . ولا يحزنون على ما فات . لأن اتباع الهدى يسهل عليهم طريق اكتساب الجنان ، ويعدهم لسعادة الدنيا والآخرة ، ومن كانت هذه وجهته يسهل عليه كل ما يستقبله ، ويهون عليه كل ما أصابه ، أو ما فقدته ، لأنه موقن بأن الله يخلفه ، فيكون كالتعب في الكسب ، لا يلبث أن يزول بلذة الربح الذي يقع أو يتوقع . »

وقد جاء في شرح القرطبي في تفسير الآية الثانية من الأتفال التي

نحن بصدددها :

« روى مسلم عن أنس بن مالك أن الناس سألوا النبي صلى الله عليه وسلم - حتى أحفوه في المسألة - أى أكثروا عليه في السؤال ، وألحوا عليه إلحاحاً شديداً فخرج ذات يوم فصعد المنبر فقال : « سلوني ، لا تسألوني عن شىء إلا بينته لكم ، مادمت في مقامى هذا » فلما سمع القوم هذا سكتوا ووجموا ورهبوا أن يكون بين يدى أمر قد حضر . قال أنس : فجعلت ألتفت يمينا وشمالا ، فإذا كل إنسان لاف رأسه في ثوبه بيكى . »

ومعنى هذا الحديث ، أن المسلمين توهموا أن الرسول ينذرهم بعقاب ، أو شك أن يحل بهم ، لذلك وجموا ، وكفوا عن القول ، ثم أخذوا يبتكون في صمت وخشوع ، فلم يكن بكأؤهم لمجرد أن الرسول وقف يعظهم ، فالبكاء لم يكن لأن الرسول وقف يخطبهم ، وإنما لأنهم أحسوا أن في وقفة الرسول على المنبر ولهجته في الخطاب ، بعد طول الحاجة والسؤال ، أن شراً موشكاً أن ينزل بهم ، لذلك قال أنس رضى الله عنه « ورهبوا أن يكون كلام الرسول بين يدى أمر حضر » .

وقد أورد القرطبي في تفسير الآية ذاتها نقلا عن المثني : ( إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ) فأدوا فرائضه .

ثم عن سويد : قال هو الرجل يريد أن يظلم أو قال يهيم بمعصية ، أحسبه قال « فينزع عنه » وهذا قول حسن ، فالإنسان يذكر الله ، في موقف يهيم فيه بمعصية أو بظلم ، فيرتعد ويفرق ، ويخشى عقاب الله ، فينزع عنه ، أى يعدل عنه .

فالإيمان بالله - عند المسلمين - هو أمان واطمئنان ، لا فرح ولا خوف ، ولذلك فإن آيات الكتاب العزيز ، ترى بأن الذين آمنوا لا خوف عليهم - ولا هم يحزنون ، ففي سورة فصلت : ( إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتمزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ، ولا تحزنوا ،

وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ) . وفي سورة طه : ( ومن يعمل من الصالحات . وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً ) ، وفي سورة الجن : ( فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً ) . وقد خاطب الله سبحانه وتعالى كليمه موسى ( يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدى المرسلون ) ، فالخوف عذاب يصيب به الله الكافرين ، والمنافقين ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ) .

أما ( فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ) لأن الذين اتبعوا هدى الله ( لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ) ، ( من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ) ، ( ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ) .

وليس هذا كله إلا مصداق وعده الله ( وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ) ، ولا يرد الخوف من مقام الله ، أو امتحانه ، أو بلائه إلا مقروناً بالبشرى بالخير والنعمة وحسن المنقلب : ( ولنسكننكم الأرض من بعدهم ، ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد ) ( ولن خاف مقام ربه جنتان ) ، ( وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ) ويتلى الله المؤمن بشيء من الخوف ، على سبيل الامتحان ، إذ لا يلبث كتاب الله العزيز أن يبشر الصابرين أي الناجحين في الامتحان بخير عاقبة ( ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين ) .

والخوف من مقام الله ، ينصرف كله إلى عقاب الله ، ووعيده ، فالخوف شعور مذل ، وإحساس مهين ، لا يتلى الله به عباده المتقين ، ولكن يصاب به من خلا قلبه عن سكينه الإيمان ، وطمأنينة الثقة بعقيدة تثبت الإنسان وتقيه زعازع الدنيا ، ومخاوف الأطماع ، وخيالات وأشباح الشهوات .

وكما أن آيات القرآن التي تقرر أن المؤمنين لا خوف عليهم ولا هم

يخزنون : فإنها تفيض كذلك بعبارة ( وبشر المؤمنين ) : ( وبشر  
 المحسنين ) : ( وبشر المحبتين ) : وتأتي هذه البشائر في صيغ عديدة وإن  
 كان المعنى ثابتاً : من ذلك : ( وبشر المؤمنين بأن هم من الله فضلاً  
 كبيراً ) والقرآن هو ( هدى وبشرى للمؤمنين ) وهؤلاء المؤمنون ( لهم البشرى  
 في الحياة الدنيا وفي الآخرة ) .

والمؤمنون في ظل هذه البشائر يمشون في الحياة ، سعداء أقوياء  
 تزيدهم السعادة إيماناً . كما يزيدهم الامتحان والابتلاء ، فهم في  
 الخالين ، يعرفون أنهم يؤدون واجباً سامياً هو ضمان حسن العاقبة في  
 الدنيا والآخرة ، وأنهم يتقبلون في رحمة الله وفضله ، مهما ادلهمت  
 الأمور ، وبدا أنه لا مخرج ، ولا مغيب . وتبلغ قوتهم الحد الذي  
 لا يخشون معه الناس جميعاً إذا اجتمعوا عليهم (الذين قال لهم الناس  
 إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً) في حين أن الكافرين  
 ينطبق عليهم قول القرآن : ( إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه ) . وهذا  
 الكلام كله يصلح مدخلا إلى حديث طويل عن السمة البارزة في  
 حضارة الإسلام ، وحديث أطول منه ، عن مستقبل الإسلام ، وموقفه  
 من المذاهب السائدة اليوم .

فحضارة الإسلام النابعة من عقيدته قامت على إشاعة الطمأنينة في  
 نفوس المؤمنين ، لطول ما تحدثت عن الرحمة ، والمودة ووصل الرحم ،  
 وإيتاء ذى القربى ، ومنح الصدقات للفقراء والمساكين ، وتحرير العبيد ،  
 والمساواة ، ودفع الحرج ، ورفع المشقة ، والدعوة إلى التيسير والتخفيف ،  
 والحض على الرفق والحلم ، وترك المراءاة ، والأخذ بالظاهر ، والتنفير من التنطع  
 والتكلف ، وهذه كلها سدود تقف في طريق الحوف والفرع وتثبت  
 أسس الطمأنينة ، في بلد شملته بهجة الإخاء الإنساني فاندفع العلماء  
 يترعون ويبحثون ، وينطلقون إلى أجواز الفضاء ، وينقبون في باطن الأرض ،  
 ويهتدون إلى حقائق ما سبقهم إليها سابق ، ثم أقيمت المدن ، وشقت

الطرق ، وحفرت الترع . ورويت الأرض البور . وتسابق الفنانون في  
النقش والتصوير ، والنسج والتطريز . والعمارة والبناء ، والموسيقى والغناء .  
وأصبحت مدن الإسلام وعواصمه جامعات للعلم ، ومعاهد للدرس .  
ومتاحف للفن ، وندوات للبحث ، وخزائن للكتب ، ومجالات للابتكار  
والابتداع ، في عالم الفكر والصناعة ، وفي دنيا العلم والزراعة .

ثم لما أدال الدهر على المسلمين ، وانطفأت مشاعل العلم في معاهدهم ،  
ومدارسهم . وأقذرت حلقات الدرس في جوامعهم ومساجدهم ، غلبت  
على الفكر الإسلامي ، في انحداره وغروبه ، فكرة أن الدين الحق هو  
الذي يبيت في ظله المسلمون على خوف ، ويستيقظون في خوف ، وأن  
المسلم الصادق هو الذي يتوهم في كل عمل يأتيه إثمًا ، وفي كل قول  
يسمعه كفرًا ، وفي كل رأى يدلى به صاحب رأى إلحاداً حتى كان  
الإسلام ، صنواً للوسوسة . أو شعوراً بالاضطهاد . وقد زاد من هذه البلية  
أن علماءهم ، أشفقوا - زمنًا غير قصير - من الاجتهادات بدعوى أن  
السلطان في بلاد المسلمين ، قد انتقل إلى أقوام لا صلة لهم بالدين ،  
ولا هم لهم إلا تثبيت ملكهم ، واسترقاق رعاياهم ، وخطف أرزاقهم ،  
ونهب أموالهم ، وهتك أعراضهم ، وهم في ظلمهم وطغيانهم في حاجة إلى  
من يحلل حرامهم ، ويبرر طغيانهم ، فلو فتح باب الاجتهاد ، دخل  
منه أذعياء الدين أفواجًا ، لا شرحًا لنص في القرآن ولا استلهاماً  
لقاعدة من قواعد الشرع ، ولا قياساً على حكم ، انتهى إليه إجماع المسلمين ،  
بل تقرباً إلى الحكم وزلني . والحق أن هذا الخطر واقع ، ولا توهم فيه ،  
ولا مبالغة ، ولكن هذا دور ( ذكر الله ) وأثره ، فإذا كان ذكر الله ،  
تطمئن به القلوب ، فلا خوف من صاحب سلطان مهما طغى ، ولا من  
حامل سيف مهما هدد أو أرعد ، وقد واجه علماء الإسلام ، والدين لا يزال  
غضاً ، محن اعتداء أصبحاب السلطان فاستمسكوا بدينهم ، واحتملوا  
السجن والأذى ، وأشرفوا على الموت ، ولم يهنوا أو يضعفوا ، ولا يمكن

أن يكون الدين ديننا ، إلا إذا أعان على احتمال المشاق ، والصبر على المكاره ، مع الدعوة الملحة إلى أحكامه الكبرى ، في مثابرة لاتنقطع ، وهمة لاتفتر .

فإذا عاد المسلمون داخل أوطانهم إلى ما كان عليه آباؤهم الأوائل ، كانت للمسلمين حياة بهيجة مشرقة . تزدان بالذوق والرقّة ، والالطف والألفة وتتعانق فيها الفرحة بالعمل ، والترحيب بالجهاد ، وثابت إليهم الثقة بأنفسهم ، فناقشوا ، وقرءوا ، وعرضوا أفكارهم ودافعوا عنها ، وسمعوا كلام الناس ، وأسمعواهم كلامهم ، وأحسوا أن دينهم مطلوب ، وأن دورهم باق لهم ومحفوظ ، وأن الإنسانية التي أحاطت بها المصائب والكوارث ، وسدت أمامهم سبل النجاة ، وتراكت بين يديها المشكلات التي لا تحل ، والأزمات التي لاتنفرج ، في أشد الحاجة إلى رأى علماء المسلمين الذي ورثوا عن أجدادهم تقاليد العلم الصحيح الذي لا يخاف ، ولا يهرب ، والذي يلتقى بنفسه في أمواج الألغاز والمعميات ، يسبح ما استطاع السبح ثم يقف ، ليستجم ، ويستعيد قواه ، ثم يستأنف العوم ، لا يخاف الغرق ، ولا يتقى البلبل .

والحق أننا لا نطمع في أن يدرك المسلمون ، هذه الحقائق المهجورة ، من دينهم ، في يوم وليلة ، فالأمر يحتاج إلى جهاد طويل ، ودونه العقبات والحوائل لأن الغاية : ليست بالصغيرة ، ولا بالقريبة ، ولكنها تستحق احتمال المشقة ، والصبر على المكاره .

ولو فعلنا لخرج جيل من المسلمين الأقوياء المطمئنين ، يبعثون في قلوب آخرين أفزعهم حال الناس في المشارق والمغرب ، الطمأنينة والسكينة ، تتقدمهم أعلام نقشوا عليها قول الله تعالى : ( ألا بذكر الله تطمئن القلوب ) .